

الهاتف الذكي العالمى: ما وراء تكنولوجيا الشباب* عرض كتاب

أحمد عبد الموجود الشناوى*

مقدمة

الكتاب الحالى هو أحد إصدارات سلسلة كتب مشروع "أنثروبولوجيا الهواتف الذكية والشيخوخة الذكية" (ASSA)، ركز هذا المشروع على تجارب شريحة ديموغرافية لا يعتبرون أنفسهم شباباً أو شيخوخاً. واهتم الكتاب بشكل خاص باستخدام هذه الفئة العمرية للهواتف الذكية وتبعات ذلك الاستخدام، حيث ارتبط استخدام تلك الأجهزة فى الماضى بالشباب فقط. كما اهتم الكتاب بمعرفة كيف أثر الهاتف الذكى على الحالة الصحية لهذه الفئة العمرية.

تتكون هذه السلسلة من كتاب مقارن موضوعه استخدام الهاتف الذكى وتبعات ذلك (الكتاب موضع العرض)، بالإضافة إلى مجموعة أعمال (من المقرر نشرها) فى مجال الصحة عبر الهواتف، وتسعة أبحاث إثنوجرافية منفصلة بنفس عناوين الفصول التسعة للكتاب الراهن لتسهيل رؤية العمل بشكل مقارن.

قام بالمشروع ١١ باحثاً عملوا فى ١٠ مواقع ميدانية فى ٩ بلدان هى: (تشيلي- أوغندا- أيرلندا "موقعين"- القدس الشرقية- اليابان- البرازيل- الكامبيرون- إيطاليا- الصين). وقام معظم الباحثون بالبحث الإثنوجرافى بشكل متزامن لمدة (١٦) شهراً من فبراير ٢٠١٨ وحتى يونيو ٢٠١٩. وتمحورت الدراسة الإثنوجرافية حول ثلاثة موضوعات رئيسية هى: التقدم فى العمر، واستخدام الهواتف الذكية، وإمكانات الهواتف الذكية فى مجال الصحة. ويُستمد هذا البحث من

* Miller, Daniel; Rabho, Laila Abed; Awondo, Patrick; de Vries, Maya; Duque, Marilia; Garvey, Pauline; Haapio-Kirk, Laura; Hawkins, Charlotte; Otaegui, Alfonso; Walton, Shireen; Wang, Xinyuan; **The Global Smartphone: Beyond a youth technology**, UCL Press: London, UK, 2021.
https://www.uclpress.co.uk/products/171336?_pos=1&_sid=8287375b5&_ss=r

صدر الكتاب بعدة لغات، والعرض الحالى يعتمد بشكل أساسى على الترجمة العربية للكتاب: دانيال ميلر وآخرون، الهاتف الذكى العالمى: ما وراء تكنولوجيا الشباب، لندن، مطبعة كلية لندن الجامعية، ٢٠٢٢.

<https://tinyurl.com/yc7nnvc8>

* أستاذ الأنثروبولوجيا الثقافية، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنايية.

المجلة الاجتماعية القومية، المجلد الواحد والستون، العدد الثانى، مايو ٢٠٢٤

برنامج أنشأته كلية لندن الجامعية - حيث يعمل معظم الباحثين المشاركين - فى الأنثروبولوجيا الرقمية، وهو برنامج يهدف إلى إقرار الأهمية المتزايدة لأنشطة الإنترنت فى حياتنا. وجاء معظم التمويل لهذا البحث وللباحثين من مركز البحوث الأوروبى تحت رعاية برنامج الاتحاد الأوروبى للبحث والتطوير أفق 2020، بالإضافة إلى بعض المنح الأخرى التى حصل عليها بعض أعضاء الفريق من جهات أخرى. يتكون الكتاب من تسعة فصول وملحق يعرض للمنهجية والمحتوى:

الفصل الأول: مقدمة

يعرض هذا الفصل لمشروع (ASSA) وتفاصيله المختلفة كدراسة عن الذكاء العام " smart from below"، والتى تهدف للتعلم من الممارسات الذكية والإبداعية لمستخدمى الهواتف الذكية فى كل مكان بالعالم. ثم يعرض تاريخ موجز للهاتف الذكى، موضحاً كيف أن البحث يسعى من خلال تركيزه على دراسة مجال الصحة عبر الهاتف، أى استخدام الهواتف الذكية للأغراض الصحية إلى الإسهام فى تحسين حياة الناس بشكل مباشر، وكذلك التركيز على الاستخدامات المجانية للهواتف الذكية لأغراض الصحة فى مقابل التطور التجارى لمجال الصحة عبر الهاتف. ثم هناك رصد قصير لتاريخ الهواتف الذكية بالتزامن مع تطور شبكة الإنترنت، وأخيراً هناك عرض لبعض الدراسات السابقة التى أجراها علماء الأنثروبولوجيا أولاً ثم علماء التخصصات الأخرى حول نفس قضايا المشروع البحثى.

وتمثل الهدف الرئيسى للمشروع فى " فهم تبعات استخدام الناس حول العالم للهواتف الذكية، فى حين كان الهدف الثانوى هو محاولة فهم حقيقة الهواتف الذكية بشكل أفضل".

المنهج: اتبعت الدراسة المنهج الإثنوغرافى بأن انتقل أعضاء الفريق للعيش داخل مجتمعات الدراسة لمدة 16 شهراً وشاركوا فى حياة أفرادها اليومية. اعتمداً على أن البحث الإثنوغرافى ربما يكون هو الطريقة الوحيدة لاكتشاف ماهية الهواتف الذكية، وذلك بسبب قدرة هذه الأجهزة غير المسبوقة على التحول. وذلك من خلال دراسة كيف حول كل مستخدم هاتفه ليتواءم مع شخصيته واهتماماته واحتياجاته، وكيف وظفه بعد ذلك وخاصة بشكل انفرادى فى تلبية احتياجاته، كما أن الإثنوغرافيا هى الطريقة المثلى لبناء نوع الثقة طويلة الأمد التى يحتاجها مثل هذا المشروع.

وتم الاعتماد فى جمع المادة بشكل أساسى على الملاحظة المباشرة للطرق التى يستخدم بها الناس هواتفهم الذكية فى حياتهم اليومية، بالإضافة إلى النقاش معهم حول ذلك. باستثناء الفصل الثانى الذى اعتمد مجملًا على الأشياء التى يقولها الناس عن الهواتف الذكية. كما يعد الكتاب الحالى كتابًا فى الأنثروبولوجيا المقارنة، والذى يهتم بالاختلافات الثقافية طيلة الوقت، وفى بعض الأحيان نجد الهاتف الذكى العالمى، حيث يجوز إصدار التعميمات عبر مواقعنا الميدانية المختلفة، وفى أوقات أخرى نجد بعض الاختلافات المحلية. مع الوضع فى الاعتبار أنه لا يوجد شعب أو مجموعة سكانية تمثل المستخدم العادى للهاتف الذكى ويعتبر معها الآخرون تنويعات. ورغم وجود تعميمات على أساس النوع الاجتماعى أو الطبقة الاجتماعية، ولكن لا يمنع ذلك أن كل فرد تمت دراسته هو أكثر من مجرد مثال أو رمز لفئة ما، ولهذا السبب فإن جزءًا كبيرًا من هذا الكتاب يتكون من بورتريهات للأشخاص تكون أحيانًا بهدف تمثيلهم كمثال، وأحيانًا أخرى بهدف الإقرار بتفردهم.

وتحت عنوان "الذكاء والهاتف" يعرض هذا الفصل لكيف أصبح الهاتف الذكى لازمة من لوازم الجنس البشرى، حيث تستخدمه جميع الفئات العمرية، لذا ركزت الدراسة على تناوله من منظور كل من كبار السن (من هم فى منتصف العمر) والشباب. وتوضح الدراسة كيف أن مصطلح الهاتف الذكى هو مصطلح مضلل أولاً لأنه لا ينبغى أن يعتبر الهاتف الذكى نوعًا من الهواتف فى المقام الأول، حيث إن المكالمات الهاتفية التقليدية لا تمثل سوى جزء صغير من استخداماته، وثانيًا لأنه ليس مثالًا جيدًا على الجهاز الذكى، أى الجهاز الذى يمكنه التعلم من خلال الاستخدام، فأهمية مثل هذا التعلم الذاتى فى الهاتف الذكى الذى نستخدمه بالفعل هى أقل كثيرًا من الطريقة التى يتحول بها الهاتف الذكى على يد مستخدميه.

الفصل الثانى: ما يقوله الناس عن الهواتف الذكية

مع قدوم عام ٢٠٢١ أصبح الهاتف الذكى جهازًا مهمًا جدًا ليس فقط للتحدث من خلاله ولكن أيضًا للتحدث عنه، ويعرض هذا الفصل الأهمية التى أصبحت لهذه الخطابات عن الهواتف الذكية. وكيف أصبح الحديث عن الهواتف الذكية طريقة لمناقشة نطاق من الاهتمامات الأخلاقية واهتمامات أخرى حول الحياة المعاصرة. فعادةً ما تكون آراء الناس عن الهواتف الذكية مليئة بالتناقضات، وهذه الازدواجية تعكس الطريقة التى غالبًا ما تُحدث بها الهواتف الذكية الإيجابيات

والسلبيات فى الوقت نفسه. كما أن الخطابات حول الهاتف الذكى تختلف عما يفعله الناس بالهواتف الذكية فى الحقيقة، حيث إن تلك الخطابات تملئها على الأغلب الجدليات الأخلاقية والسياسية. وبدلاً من ذلك، من الأفضل اعتبار تلك الخطابات خصائص مستقلة للهاتف الذكى والتي يجب فحص عواقبها بشكل مستقل.

ويعرض هذا الفصل لبعض الأمثلة حول علاقة الدولة والإعلام بشكل عام، وكيف أن معظم الحكومات تعتبر أن توفير بنية رقمية أساسية يعد شيئاً أساسياً لرخاء شعوبها، فى نفس الوقت الذى من الممكن أن ينظر للدولة كواحدة من المتهمين الرئيسيين عندما يعبر الناس عن قلقهم من الرقابة، حيث تتمحور ممارسات الدولة فى الكثير من البلدان حول الرقابة. كما تسهم الصحافة فى الأخرى بشكل أساسى فى الخطابات السلبية حول الهواتف الذكية بسبب منافستها الشديدة للصحافة.

وتحت عنوان المواطنة والإجماع، يشير الفصل الثانى إلى ميل كبار السن فى الموقع الميدانى الصينى إلى اعتبار الهاتف الذكى جزءاً من واجبهم كمواطنين لمساندة تقدم بلادهم التكنولوجى، وهم بهذا يتخذون موقفاً مناقضاً لكبار السن ذوى الاتجاه المحافظ فى أماكن أخرى. وتهيمن موضوعات معينة على المناقشات حول الهواتف الذكية، مثل الأخبار المزيفة والإدمان والرقابة. وعلى النقيض من ذلك، فإن النقاشات العلنية حول الاستخدامات العامة وعواقب الهواتف الذكية تعتبر محدودة. وكذلك نجد تناقضاً موازياً فى الأدلة الأكاديمية لأكثر الادعاءات شيوعاً فيما يخص عواقب الهواتف الذكية.

الفصل الثالث: الهاتف الذكى فى سياقه

يعترف هذا الفصل فى بدايته بأن الهواتف الذكية هى أشياء مادية تستخدم كإكسسوار للأزياء، أو كمؤشر على منزلة المرء، كما أنها أشياء يمكن سرقتها. ورغم أن تكاليف استخدام الهواتف وخطط الأسعار وتكاليف الاتصال بالإنترنت مثل الواى فاى أو الاتصال الشبكى قد تشكل قلقاً بالنسبة لذوى الدخول المنخفضة، فإنهم واسعوا الحيلة فى إيجاد الطرق التى تمكنهم من الحصول على الهاتف الذكى، وتبقيهم على اتصال بشبكة الإنترنت.

يعرض هذا الفصل بعد ذلك لما أسماه إيكولوجيا الشاشة Screen Ecology، ويقصد بها الطريقة التى تعمل بها الهواتف الذكية جنباً إلى جنب مع الشاشات الأخرى كالأجهزة اللوحية

"الحواسيب" المحمولة والتليفزيونات الذكية، فاستخدام أحد من تلك الأجهزة يبدو منطقيًا فقط في وجود الأجهزة الأخرى.

ثم يعرض بعد ذلك لما أسماه الإيكولوجيا الاجتماعية Social Ecology للإشارة إلى ما تفصح عنه استخدامات الهواتف الذكية عن العلاقات الاجتماعية في مجتمع ما، حيث إن مالك الهاتف الذكي ليس فردًا معزولًا عن الآخرين. كما أن الهواتف الذكية يمكنها تيسير بناء شبكة العلاقات التي تتمحور حول شخص ما، وبالمثل يمكنها تعزيز الفئات الاجتماعية التقليدية، مثل العائلة أو الجماعة.

ويخلص هذا الفصل إلى استنتاج بأنه من الضروري جدًا بالنسبة لجهاز مثل الهاتف الذكي أن نهتم بالسياق الخاص به، فهو جهاز من شأنه أن يصبح مركزًا للتحكم والذي منه تنطلق تقنيات أخرى وحوله يصطف أشخاص آخرون. وأن هناك القليل من الأشياء التي تشابكت مع حياتنا اليومية ومع علاقاتنا مثلما يفعل الهاتف الذكي الآن.

الفصل الرابع: من التطبيقات للحياة اليومية

يتناول هذا الفصل الاستخدامات الملحوظة وليس الاستخدامات الممكنة للهاتف الذكي، كما يهتم بالمطورين الذين لا يظهرون في البحث الإثنوجرافي ولكن أعمالهم في إنشاء التطبيقات تظهر بوضوح في الهاتف الذكي نفسه.

ويركز مستخدمو الهواتف الذكية بشكل عام على المهام الخاصة بهم وليس على تطبيقات الهاتف في حد ذاتها، وغالبًا ما يمزجون بين استخدام عدد من التطبيقات للوصول لأهدافهم. فبالنسبة للصحة على سبيل المثال، نجد أن استخدام التطبيقات المخصصة للصحة يشكل للمستخدمين أهمية تقل كثيرًا عن المزج بين التطبيقات العادية المختلفة مثل واتساب مع جوجل.

ويصف مصطلح "حل المشكلات التوسعي/ الحلول القابلة للتطبيق" على نطاق أوسع، نطاق الأشياء التي يفعلها الناس بتطبيقات هواتفهم، وهذا النطاق يتراوح من التطبيقات ذات الوظيفة الواحدة "عندما نقول هناك تطبيق لهذا خصيصًا"، أو تلك التي تستخدم كما لو كانت ذات وظيفة واحدة إلى التطبيقات التي تهدف أن تكون مفيدة لكل أنواع المحادثات مثل الويبتشات WeChat، ومعرفة الهاتف الذكي ومستخدمه بشكل جيد تتطلب النظر في كل تطبيقات هاتفه، ومعرفة ما إذا كانت هذه التطبيقات مستخدمة أم لا، وكيفية استخدامها. كما يتطلب فهم التطبيقات أيضًا

استكشاف الوسائل التي تطور بها الشركات تلك التطبيقات، والتي تستجيب بها للطرق غير المتوقعة التي يتم بها استخدام تلك التطبيقات بعد تطويرها. كما يشمل البحث في تطبيقات الهاتف أيضًا تحرى الطرق المختلفة التي ينظم بها الناس شاشات هواتفهم الذكية.

وأخيرًا يعرض الفصل لكيفية دفع المستخدمين لخصوصيتهم في مقابل حصولهم على التطبيقات المتاحة بالمجان، حيث توثق شروط الاستخدام الإجبارية هذا الاتفاق عند الاستخدام الأول لتلك التطبيقات، وكيفية تطوير الشركات الكبرى لاستراتيجيات لإبقاء الناس عاكفين على التطبيقات التي طوروها.

الفصل الخامس: الانتهازية المتواصلة

يحاول هذا الفصل ربط الخواص الداخلية للهاتف الذكي بأكثر سماته الخارجية وضوحًا، فهو كهاتف محمول صغير بما يكفي لوضعه في الجيب أو في حقيبة اليد مما يجعله حاضرًا بسهولة من اللحظة التي يستيقظ فيها الشخص للحظة التي ينام فيها. فليس الأمر في أنه يمكن حمله لأماكن مختلفة، ولكن في أنه موجود دائمًا في نفس المكان، وهذا المكان هو بجانب أجسادنا حيث يكون دائمًا حاضرًا.

وفي هذا الإطار يشير مصطلح الانتهازية المتواصلة perpetual opportunism إلى كون الهاتف الذكي متاحًا طوال الوقت، وكيف أن هذا يؤدي لإحداث تغييرات في علاقة الأفراد بالعالم من حولهم، حيث سمح ذلك الهاتف المحمول بأن نكون متاحين على الدوام لشخص آخر. وكذلك تغير الانتهازية المتواصلة علاقتنا بالأماكن وأنظمة المواصلات مما يتيح لنا السفر كلما أردنا، كما أن تطبيقات الخرائط تسهل علينا إجازاتنا وأوقات فراغنا. كما تتدفق الأخبار بشكل فوري بفضل الانتهازية المتواصلة، وقد تصبح الشغل الشاغل للناس، فالأخبار والمعلومات تتخذ أدوارًا جديدة بالنسبة للجماعة. وأخيرًا تجعل الهواتف الذكية الترفيه ممكنًا ومتاحًا في أي وقت نشعر فيه بالملل مثل أوقات الوقوف في الطوابير أو الانتظار للسفر، فنحن يمكننا استخدام الموسيقى بالعديد من الأشكال المختلفة على سبيل المثال.

بالإضافة إلى ما سبق أصبح التصوير الرقمي باستخدام الهواتف الذكية يعنى تقريبًا العكس تمامًا من التصوير التناظري باستخدام الأفلام، حيث كان التصوير الفوتوغرافي الفيلمي في الأصل معنيًا بالتمثيل وإنشاء السجلات الدائمة، ولكن التصوير بالهواتف الذكية يهتم أكثر باللحظة وإمكانية

مشاركتها وقتياً. وتشير نتائج الدراسة إلى أن كبار السن يبدون استجابات مختلفة عندما يتم تصويرهم، فحقيقة الشخص يمكن أن تكون "ما يشعر به داخل نفسه، أو مظهره الخارجي، أو الصورة التي يصيغها باستخدام الفلاتر والتطبيقات".

ويخلص هذا الفصل إلى أن هناك عواقب أكثر خطورة تكمن في تضخم إمكانات الهاتف الذكي، ولمصطلح الانتهازية نفسه دلالات سلبية، فالجانب الآخر من الانتهازية الدائمة هو الضعف الدائم، فأينما كنت قد يلاحقك شخص ما؛ قد يبدو أنه لا يوجد عذر مقبول لعدم الرد عندما يكون واتساب قد أبلغ المرسل أنك تلقيت رسالته بالفعل. كما يمكن أن تُختبر الانتهازية المتواصلة كضغط متواصل أيضاً، حيث يمكن لأصحاب العمل إعطاء التكاليفات في أى وقت وفي أى يوم. لذلك شهدت الانتهازية المتواصلة ارتفاعاً في عدد المطالبات التي تدعو لأخذ فترات راحة من الهاتف الذكي، ولكن لا تعنى الانتهازية المتواصلة أننا بالضرورة أصبحنا أكثر سطحية أو أقصر نظراً في رؤيتنا للحياة، فالهواتف الذكية تستخدم أيضاً للتخطيط طويل المدى بقدر ما تستخدم للمتعة اللحظية.

الفصل السادس: الصياغة

لا تشير كلمة "صياغة" في هذا الكتاب إلى الطريقة التي يستعمل بها الأشخاص هواتفهم الذكية ويكيّفونها فحسب، بل هي أيضاً توائم هذا النشاط مع الاهتمام الأكبر بصياغة الحياة نفسها، وبحث الطريقة التي يوائم بها الأشخاص هواتفهم الذكية مع حياتهم الفردية والاجتماعية والمجتمعية. كما أن صياغة الهواتف الذكية دائماً ما تكون مرتبطة بالسياق والاستخدام، فهي ليست مسألة إنشاء شيء مستقل، إنما الهدف من تلك الصياغة هو بالأحرى خلق التوافق مع الحياة اليومية.

وتعد مرونة وحميمية الهاتف الذكي شيئاً غير مسبوق، حيث يمكن له مضاهاة شخصية واهتمامات مستخدمه بدقة كبيرة. وتعد الخوارزميات والذكاء الاصطناعي المطوران خصيصاً لهذا الغرض أقل أهمية من قدرة الأفراد على اختيار التطبيقات وتغيير الإعدادات وإنشاء أو تنسيق المحتوى، ويمكن رؤية صياغة المرء لهاتفه كعمل فني. كما تصاغ الهواتف أيضاً لملاءمة العلاقات أكثر من الأفراد، وتشمل الأمثلة على ذلك العلاقة بين شركاء الحياة وبين الآباء والأبناء وبين الموظفين ورؤساء العمل.

ويخلص هذا الفصل إلى أنه كما تتجلى أعراف وقيم المجتمع بشكل عام في الأفراد، فإن هذه الأعراف والقيم تشكل أساسًا لما تصيح عليه الهواتف، ولكن قد يكون الأفراد ملتزمين بتلك الأعراف والقيم أو شاذين عنها. وقد تنقيد الهواتف بالأعراف المتفق عليها كما يحدث في اليابان أو داخل الجماعات الدينية، كما أنها قد تسهل إحداث التغيير في تلك القيم الثقافية كما هو الحال في إرساء قيم الطبقة الوسطى في الكاميرون.

الفصل السابع: السن والهواتف الذكية

يعرض هذا الفصل في بدايته لموضوع الشباب والعلاقات بين الأجيال، ثم يفحص بعد ذلك للمشكلات التي يواجهها كبار السن في تعلم استخدام الهواتف الذكية، ثم المشكلات الأخرى التي يواجهونها عامة، وأخيرًا ينظر في تطوير التطبيقات التي تستهدف هذه الفئة السكانية على وجه التحديد. كما يدرس هذا الفصل الهواتف الذكية من منظور أكثر من عامل اجتماعي، مثل النوع أو الطبقة أو السن. وكيف تساعد الهواتف الذكية على إحداث التحولات؟، والمثال على ذلك مساعدة شباب الجيل الثاني في إيطاليا على استكشاف أركان هويتهم الاجتماعية، أو الأشخاص الذين يحاولون صنع حياة يومية جديدة بعد التقاعد.

أما بالنسبة لكبار السن فقد مثلت الهواتف الذكية فقدان الاحترام للمعرفة التي راكموها على مر العقود والتي من الممكن أن ينظر إليها على أنها لا حاجة لها الآن مقارنة بالمعرفة الكبيرة لدى الأجيال الشابة بالتكنولوجيا عامة وبالهاتف الذكي خاصة. كما يعاني كبار السن من استخدام الهواتف الذكية حين يتطلب الأمر بعض الحنكة الرقمية، أو حين تستخدم المصطلحات بطرق غير اعتيادية بالنسبة لهم، كما أنهم يواجهون بعض الصعوبات في تعلم كيفية النشر والاستخدام الصحيحة. وعلى الرغم من أن كبار السن غالبًا ما يشعرون بالانعزال فإن إتقانهم لاستخدام الهواتف الذكية ينتج عنه إحساسهم بالقرب من جيل الشباب. وقد تطور الشركات أحيانًا تطبيقات مخصصة لاستخدامات كبار السن.

وتتمثل أهم السلبيات المتعلقة بالهواتف الذكية لدى كبار السن في الخوف من التعرض للسرقة، والخوف بشكل عام من فقدان الخصوصية أو احتمالات المراقبة والتطفل من خلال التقنيات التي لا يفهمونها إلا بشكل جزئي فقط. كما يؤدي النزوع المتزايد للحكومات نحو النفاذية للعديد من الخدمات عبر الإنترنت فقط، إلى إحداث اعتماد متزايد على الهواتف الذكية والذي قد

يستاء منه بعض كبار السن ويعتبرونه شكلاً من أشكال النبذ القائم على السن، وأخيراً الخوف من الجريمة أيضاً، فغالباً ما يكون كبار السن الهدف الأساسي للاحتيال والهجمات الإلكترونية وعمليات النصب.

أما عن الفوائد الناتجة عن استخدام الهواتف الذكية والتي تتعلق أيضاً بشكل خاص بهذه الفئة السكانية، فنرى الوجه الأكثر وضوحاً لذلك في مجال الصحة، ولننظر مثلاً إلى احتمالات أن يعاني كبار السن من الوهن أو الإعاقات أو مختلف مشكلات الحركة. وقد أعطت تجربة الإغلاق الكامل التي أعقبت جائحة كوفيد ١٩ العالم لمحة عن أهمية التواصل عبر الإنترنت لكبار السن الذين يفتقرون إلى القدرة على الحركة.

ويخلص هذا الفصل إلى أن هناك عاملاً آخر يجب مراعاته ألا وهو سرعة التغيير، حيث تتطور طريقة تفاعلنا مع الهواتف الذكية في تعقيدها وعمقها عام عن الآخر، فسواء كان ذلك التطور هو التطور المشترك لهوية الشباب، أو كان تطور اللوائح الجديدة التي تضعها الدولة للبنية التحتية الرقمية فإن العمليات التي تحكم علاقة الهواتف الذكية بالعلاقات الاجتماعية والقيم الثقافية هي عمليات ديناميكية بشكل غير عادي.

الفصل الثامن: قلب الهاتف الذكي: لاين وويتشات وواتساب

بالنسبة للعديد من المستخدمين في معظم المناطق هناك تطبيق واحد يمثل أهم شيء قد يفعله الهاتف الذكي لهم. قد تهيمن هذه التطبيقات على استخدامهم اليومي للهاتف الذكي لدرجة أنها تصبح تقريباً مرادفة للهاتف نفسه. كما أنها قد أصبحت في أغلب الوقت أدوات للتعبير عن تقاينى الناس لمن يهتمون بأمرهم. وقد صار لتطبيقات مثل لاين Line وويتشات WeChat وواتساب WhatsApp لدى البعض حضور طاعٍ لدرجة أن بعض المستخدمين يرون الهواتف الذكية كأجهزة تتيح لهم استخدام تلك التطبيقات ليس أكثر.

يعرض هذا الفصل لمحة تاريخية موجزة عن تلك التطبيقات، ودور التعبيرات البصرية في التعبير عن المشاعر والاهتمام، وكيف دمجت الوسائط البصرية كالمصقات stickers الحديث بالنص المكتوب وجعلتهما جزءاً لا يتجزأ من أى محادثة، فهي تقدم طرقاً جديدة لإظهار الاهتمام والحب رغم المسافات.

ترى الدراسة أن تلك التطبيقات قد تصبح أيضاً عواملاً مهمة في إحداث التحولات في العلاقات العائلية، حيث يمكنها على سبيل المثال إعادة توسيع مجال تلك العلاقات على العكس من التحول الذي حدث تاريخياً من العائلة الممتدة إلى الأسرة النووية، ولقد اكتسبت تلك التطبيقات حضوراً مهماً في قيام الجماعات بوظائفها وترتيبها لأموها. وبهذا تزيد الهواتف الذكية من التواصل الاجتماعي القابل للتوسع وتوفق بين طرق الاستخدام من ناحية وأحجام الفئات ودرجات الخصوصية المختلفة من ناحية أخرى.

وبدورها تتعلم الشركات من انتشار استخدام تلك التطبيقات اجتماعياً وتطور التكنولوجيا الخاصة بها بناء على ذلك من أجل تبني ومواءمة المستخدمين لمنتجاتها. فمن الواضح أنه من مصلحة الشركات الحفاظ على ملاءمة تطبيقاتها لأي تطورات قد تطرأ على طريقة استخدامها. هناك ثلاثة استنتاجات أولية يخرج بها هذا الفصل حول تلك التطبيقات؛ الأول هو أن هذه التطبيقات قد تشير إلى اتجاه حركة الهاتف الذكي نفسه، والثاني هو أنها قد اكتسبت هذا الوضع المركزي من خلال اتساع نطاق توظيفاتها، والثالث يدل على أن عمق التوظيف لا يقل أهمية عن اتساعه، فالعمق هو مفتاح اعتمادية الناس اللاحقة على تلك التطبيقات.

الفصل التاسع: تأملات عامة ونظرية

يركز هذا الفصل الختامي بشكل أكبر على عواقب الهواتف الذكية على الأشخاص نظراً لأن علم الأنثروبولوجيا أقل اهتماماً بالتكنولوجيا في حد ذاتها من اهتمامها بالاستفادة من دراسة آثار مثل هذه الأجهزة، وإلقاء الضوء على الأفراد والمجتمع والثقافة بهدف إثقال فهمنا للإنسانية.

وسعى هذا الفصل لإعادة فهم كيفية تعامل الأشخاص مع الهاتف الذكي بناءً على مفهوم المنزل المتنقل transportal home، حيث يساعد هذا الوصف على فهم أفضل للهاتف الذكي كمكان نعيش داخله وليس كجهاز نستخدمه، وفي هذا الإطار يعقد مقارنة بين مكونات المنزل الحقيقي ومساحاته المتنوعة الاستخدام، وبين عالم الهاتف الذكي وما يوفره من مساحات تفاعلية أيضاً. وكذلك الأوجه الكثيرة التي يعتبر الناس بها هواتفهم كمساحات خاصة. وتكمن أهمية النظر في الهاتف الذكي كمنزل متنقل بالنسبة للأنثروبولوجيا-على سبيل المثال- في الاعتراف بتلك العلاقة الإشكالية للغاية بين المهاجرين الشباب من ناحية، والمنازل التقليدية من ناحية أخرى، كما تكمن في تقدير إمكانية الهاتف الذكي على تعويض خسارة هؤلاء المهاجرين لمنازلهم التقليدية.

يجمع الهاتف الذكي بين العديد من الإمكانيات التي تتراوح بين تعدد الأنشطة التي تحدث في غرفه المنفصلة وإمكانية تقديم الرعاية عن بعد من خلاله، أو إمكانية استخدامه كمركز تحكم عن بعد يكون مرتبطاً بدوره بأنظمة أخرى كالنقل. كما يؤثر الهاتف الذكي كمنزل متنقل تأثيراً عميقاً بداية من موت النقارب وحتى توفير اتصال آمن لكبار السن. كما يحظى الهاتف الذكي بقدرته المادية على التنقل بحملنا الدائم له. ويتطور التجسيد المادي للهاتف من خلال عمليات معينة مثل العمليات التكاملية "كتولييه بعض مهام الذاكرة"، أو التعويضية "كتوسيعه لقدرتنا على معرفة ما هو موجود حولنا"، هذا بالإضافة إلى قدرته على تغيير الفرد الذي ينتمي إليه، فنحن نغير عاداتنا وممارساتنا بمجرد امتلاكنا هاتفاً ذكياً. كما يعبر الهاتف الذكي أيضاً عن شخصية مالكة بشكل كامل.

يقارن هذا الفصل بين الروبوت والهاتف الذكي وكيف استطاع التغلب على فكرة التجسيد أو التشبه الآدمي الملازم للروبوت انطلاقاً من أن الحميمية لا تأتي فقط بالتشبه بالبشر ولكن أيضاً بإتمام الخصال البشرية كالوظائف الإدراكية، ولهذا أصبح البشر يشعرون أن الهاتف الذكي جزء أساسي منهم. كما يمكن للهاتف الذكي أن يتخذ كل الصفات الإنسانية الخبيثة من أول التتمر وحتى الإدمان. وجعلت أزمة تفاهم وباء كوفيد ١٩ هذا التناقض واضحاً، فالهواتف الذكية تزيد من فرص المراقبة ولكنها في نفس الوقت وسيلة جيدة لإبداء الاهتمام رغم المسافات. ولذا أصبح الهاتف الذكي محورياً لجميع العلاقات والجماعات، ليس فقط كوسيط للتواصل ولكن أيضاً كشيء أصبح الآن يشكل جزئياً تلك العلاقات أو الجماعات أو الشبكات.

يخلص هذا الفصل إلى أن هناك ثلاثة اعتبارات مهمة لمتابعة تطورات الهاتف الذكي؛ الأول هو فحص مسألة المراقبة، والثاني هو دراسة طبيعة الرعاية، والثالث وهو الأهم هو النظر في الآثار المترتبة على تحقيق التوازن بين المراقبة والرعاية. وإذا كانت المراقبة تبدو كلعنة الهواتف الذكية، ولكن تظهر الرعاية في البداية وكأنها هبة تلك الهواتف، مع الوضع في الاعتبار أنه لا يوجد فاصل واضح بين الرعاية الحميدة والمراقبة الخبيثة. كما قد تكون المراقبة في كثير من الأحيان دليلاً على تخوف حقيقي ومستمر بما في ذلك الرعاية المقدمة من الدولة أثناء جائحة كوفيد ١٩، وبالمثل هناك دراسات أنثروبولوجية عديدة تتعلق بالجانب المظلم من الرعاية لا سيما فيما يخص قضايا الهجرة، حيث يمكن للهواتف الذكية في بعض الحالات أن تصبح أيضاً أدوات تستخدم لتقييد أو تقويض الاستقلالية.

إن من مباحج دراسة الهاتف الذكى؛ أنه يتيح النفاذ إلى الطرق التى يمكن أن يكون الناس بها أذكاء والتى لا حصر لها. ليست هذه الطرق جيدة بالضرورة، فالكتاب يعج بأمثلة على كيفية إظهار الهاتف الذكى لإنسانيتنا وكذلك لعدم إنسانيتنا، ولكن تسليط الضوء على الطرق التى يسهم بها الناس العاديون بإبداعهم فى صنع ما أصبحت عليه الهواتف الذكبة قد يساعد البشرية على استعادة القليل من احترام الذات لا سيما فى وجه القدرات والتقنيات الجديدة المخيفة وفى وجه الشركات والدول ذات النفوذ الهائل التى تقف وراءها. لقد كان الناس العاديون هم من حولوا قابلية الهواتف الذكبة بأن تكون مجرد "ماهرة - ذكية"، للقابلية بأن تكون "حساسة - ذكية"، وهم من يعود لهم الفضل فى أن كل هاتف ذكى فريد من نوعه.

وفى النهاية يجب النظر بعين التقدير لتجارب الناس إثر أزمة كوفيد ١٩، ورؤية تلك التجارب كفرصة لاتخاذ قرارات مستقبلية بصدد استخدامات الهاتف الذكى، ويدعو الكتاب ذلك المنظور بالذكاء العام smart from below.